

صور من خصائص أدب الرحلة في رحلات الأستاذ مشهود محمود
جمبا النيجيري

**Characteristics of Travelogue in Professor
Moshood Mahmood Jimba's Travel Literature**

بشير أمين

جامعة أمير أبوبكر أوود، أنيغبا، ولاية كوغبي - نيجيريا

لوال رحمان

جامعة أمير أبوبكر أوود، أنيغبا، ولاية كوغبي - نيجيريا

Abstract

Travel literature, a group of literary monuments that deals with an author's impressions of his travels to different countries and places, in which he describes events that happened during his journey. Travel literature is one of the literary arts in the Nigerian Arabic literature since 1940S when some scholars/travelers traveled to many places for religion, knowledge, culture, diplomatic relations factors. They documented some events, places, historical and geographical locations, attitude of people, among others. This research aimed to technical characteristics in Professor Mashood Mahmood Jimba's travel literature. The researcher adopted descriptive approach to carry out the study. The results of the research explained that Professor Mahmood Jimba travels characterized by direct recording of events, describing the preparation for departure and its stages,

mentioning means of transportation and traveling companions, identifying problems and thoughts during travel, describing geographical, historical, social and religious issues, narration of places and time, citing Qur'anic verses and Prophetic Hadith, inclusion of Arabic poetry, narrating of Islamic literature, and emotional feelings of the traveler.

Keywords: Travel Literature, Nigeria, Moshood Jimba. Description and Characteristics.

ملخص

أدب الرحلة مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها. يعدُّ أدب الرحلة فناً من الفنون الأدبية الذي يشهده الأدب العربي النيجيري منذ الأربعينات من القرن العشرين، حيث وصف الأدباء الرحالون ما يرون ومن يرون في الأماكن التي زارها وجعلوا رحلاتهم تأخذ طابعاً فنياً، وأدبياً، وتاريخياً وجغرافياً. ومن العوامل التي تشجّع العلماء والأدباء على الرحلة؛ طلب العلم، والحج، والجهاد، والثقافة، والعلاقة الدبلوماسية، وزيارة الشيوخ، وحضور المؤتمرات، وحماية المخطوطات. ويعد الأستاذ الدكتور مشهود جمبا أحد الأدباء النيجيريين المعاصرين الذي قام برحلات كثيرة إلى دول مختلفة لأغراض شتى، فقد دوّن رحلاته بأسلوب أدبي رائع. يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الخصائص الفنية البارزة في رحلات الأستاذ مشهود محمود جمبا (Jimba)، وقد اعتمد الباحث على المنهج الوصفي لإنجاز هذا البحث. وفي النهاية، رصدت الدراسة أهم الخصائص الفنية التي تتميز بها رحلات الأستاذ جمبا وتتضمن؛ التسجيل المباشر للأحداث والمشاهد، ووصف الاستعداد للرحيل ومراحله، وذكر وسائل النقل ورفقاء السفر، وتحديد المشكلات والخواطر أثناء السفر، ووصف القضايا الجغرافية، والتاريخية، والاجتماعية،

والدينية، وسرد المكان والزمان، والاستشهاد بالآيات القرآنية والحديث النبوي، والتناص بالأشعار العربية، وتصوير الأدب الإسلامي، وظهور عواطف الرحالة. الكلمات الدالة: أدب الرحلة، نيجيريا، مشهود محمود جمبا، الوصف، الخصائص

المقدمة

الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته، وكانت هواية الأمم، نجدتها في الثقافات والحضارات القديمة. وقد لعبت دورهاً فعالاً في الكشف عن الجغرافي والاتصال بين الشعوب، واكتساب معرفة الواحد بالآخر خصوصاً فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات. وأدب الرحلة لون أدبي ذو طابع قصصي، فيه فائدة للمؤرخ مثل الباحث في الأدب والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم. كما أنه ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار، وبلدان ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها، حكاما ومواطنين، فهو وصف في النهاية لكل ما انطبع في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط، يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية التاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها. وهذا النوع من الأدب يعرفه علماء نيجيريا منذ الأربعينات من القرن العشرين حيث قام كثير من العلماء والأدباء هذه البلاد برحلات متعددة إلى دول شتى لأغراض دينية علمية وثقافية وسياسية ودبلوماسية وسجلوا خبراتهم ومشاهداتهم أثناء السفر. وفي عصرنا الحاضر يزداد عناية العلماء والباحثين بتسجيل رحلاتهم العلمية والثقافية فألفوا فيها شعراً ونثراً بأسلوب الأدبي الرائع. والأستاذ الدكتور محمود جمبا من خيرة الأدباء النيجيريين المعاصرين رحل إلى بلدان عديدة وديار شتى ودون مشاهداته، ورسم انطباعات الأشياء على صفحات العقل والحس والوجدان.

يسلط هذا البحث الضوء على خصائص رحلات الأستاذ الدكتور مشهود محمود جمبا، وتكمن أهمية البحث من كونه يعالج ظاهرة فنية بارزة تجلّت في رحلات الأستاذ جمبا، وفي مطلع الدراسة تحدث الباحث باختصار عن نشأة

وتطور أدب الرحلات الأدب العربي النيجيري ثم عكف على تقديم نبذة يسيرة عن حياة الرحالة من حيث مولده وتعلّمه ومؤلفاته الأدبية وعوامل تكوين شخصيته في الرحلة. وفي الأخير عكف الباحث على توضيح أبرز الخصائص التي تتميز بها رحلات الأستاذ جمبا، ثم الخاتمة.

التعريف بالرحالة

هو مشهود بن محمود بن مُحمَّد جمبا، ولد عام 1963م بمدينة إلورن نيجيريا. درس بمعهد العلوم العربية للجماعة الأدبية بإلورن (Ilorin) ثم بمعهد إلورن الديني الأزهرى ثم بمعهد البعوث الإسلامية بالقاهرة. حصل على الليسانس في اللغة العربية من جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة عام 1987م، وعلى الماجستير في جامعة إلورن 1995م والدكتوراه من الجامعة نفسها عام 2006م. ويعمل محاضراً بجامعة ولاية كوارا، مليتي (Malete)، نيجيريا. وهو حالياً عميد شؤون الطلاب ومدير مركز المخطوطات والثقافة الإلورية بجامعة ولاية كوارا، ورئيس الجمعية الأكاديمية للغة العربية وآدابها في نيجيريا (ASALLIN)، ورئيس الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، فرع نيجيريا. هو عضو اللجنة التنفيذية Research Africa بجامعة دوك بولاية نورث كارولينا بأمريكا، وعضو بارز بالرابطة العالمية للأدب الإسلامي، فرع نيجيريا.⁽¹⁾ شارك في عدد من المؤتمرات العلمية في نيجيريا والدول العربية والأمريكا، وله مؤلفات كثيرة في الفنون العلمية والأدبية.

الرحالة وعوامل تكوينه

تؤثر البيئة في تكوين شخصية الرحالة ويمكن تقسيم تلك البيئة إلى الاثنين، فالأولى: البيئة الإسلامية الإلورية التي تطورت فيها اللغة العربية تطوراً كبيراً منذ زمن طويل، ولد فيها الرحالة، تعلّم المبادئ الدينية، واكتسب الثقافة العربية في جميع مراحلها الدراسية أي المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية وقرأ عدداً لا بأس به من الكتب الأدبية شعراً ونثراً سواء للمؤلفين العرب أو للمؤلفين النيجيريين. أما البيئة الثانية فهي دراساته في مصر، حيث درس الرحالة بمعهد

البعوث الإسلامية بالقاهرة، ثم بجامعة الأزهر الشريف حيث نال شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها واكتسب كثيراً من الثقافات العربية لكونه في البيئة اللغوية، واختلط مع ذوي اللسان العربي الأصيل، وقرأ عدداً من كتب رحلات العرب كابن بطوطة، والمسعودي، وابن فضلان، ويعقوب الحموي والإدريسي وغيرهم من الذين كتبوا الرحلات في البلاد العربية.

رحلاته الأدبية

رحل إلى دول متعددة لأغراض دينية وثقافية وتاريخية، ومن الدول التي سفر إليها: السودان، وليبيا، ومصر، والجزائر، والمغرب، والمملكة العربية السعودية، والأردن، وليبيا والولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة، ومالي، والنيجر، والسنغال، وبنين. والأستاذ يحاول إثراء كل رحلة علمية أن يسجل تجربته ليشارك القراء في تلك التجارب، ويفيد العالم بما يشاهده من المناظر والمشاهد التي تطفو انفعالاتها على نفسه وتأتي إلا أن تخرج إلى عالم القراءة تلك رؤية ثاقبة من قلبه تجاه إحياء "أدب الرحلة" وعلى علم الباحث قد ألف ستة الكتب في أدب الرحلات، وهي كما يلي:

- 1- من إلورن إلى تمبكتو 2009م
- 2- خلاصة الأخبار في زيارة ولاية أدوا 2015م
- 3- نيل المرام بزيارة مدينة دُرْهام" 2015م
- 4- التفرج برحلة لندن وكامبرج" 2016م
- 5- الرحلة البهية إلى المملكة الأردنية الهاشمية 2020
- 6- إعلام الرجال بما شاهدتُ في رحلة السنغال 2020م

خصائص أدبية الرحلة في رحلات الأستاذ جمبا

أول من لاحظته الباحث في رحلات جمبا أنه دَوّن رحلاته بأسلوبه ومناهجه الخاصة، ففي بعض الأحيان يختار أسلوب الرواية، ويختار أسلوب نقل الأخبار في حين آخر، وأحياناً يميل إلى أسلوب السيرة الذاتية، وعلى الرغم من

تلك الأساليب المتنوعة كان الهدف الرئيسي للرحلة نقل الأخبار عن البلاد المشهود إلى القارئ بطريقة جيدة وبرسم بارع وصور بديع. وقد تتميز رحلات جمبا بخصائص متعددة يمكن ملاحظتها من شتى الجوانب كما في النقاط التالية:

العناية بالتسجيل المباشر للأحداث والمشاهد: كان من عادات الرحالة أن يسافر بالقلم والدفتر فيسجل الأحداث والمشاهدات وأسماء الشخصيات مباشرة، لكي تبقى المشاعر والانطباعات حية في ذاكرته، فهو يعرف أن الانطباعات لا ثقة بها، فهي يشبه بالظلال والأمواج فلا تبقى. وكان حريصاً على جلوس في المقعد الأمامي أو بجوار النوافذ داخل السيارة أو الطائرة ليتمكن له مشاهدة الأشياء والأماكن ويسجلها مباشرة، فقد أسهم ذلك في جودة أسلوبه حيث تبقى مشاعره وانطباعاته، ولا يعتمد على الذاكرة في كتابة رحلاته وإنما يهتم بالأمانة التي هي سمة من السمات الأديب المسلم. يهتم الرحالة بهذا الجانب لأنه يكتب من دافعته، ولا يكتب باقتراح غيره، ولذلك يتحقق صدق العاطفة وحرارة العقيدة وإخلاص النية للرحلة.

العناية بوصف الاستعداد للرحيل ومراحل الرحلة

يهتم الرحالة بوصف حالة الشوق للذهاب إلى دولة ما لغرض من الأغراض، ثم يصف بحثه عن المراكب التي مهيأة للسفر عملية وإعداد العدة للسفر بما تلزمه الطريق، من مركوب، وأموال، وبداية السفر وتوديع الأهل والأصحاب، وعند الحديث عن مراحل الرحلة يعمد الرحالة إلى أحوال الرحالين في المراكب ووصف أماكن النزول والمبيت والمعاملة التي يلقاها الراكب. ومثال ذلك وصف استعداد سفرته إلى مدينة درهام بالأمركا: "وخلال الشهرين التاليين تكثفت الاتصالات بين الجامعة والمدعويين عبر منسقة المؤتمر الأنسة كبرى بحجيس، الشابة النشطة الذكية في العشرينات من عمرها، التي كانت تراسل جميع المشاركين باستمرار وتمدهم بالجديد الطريف حول الاستعدادات للمؤتمر مثل

حجز الغرف في الفنادق، وسائل الدعوة، وحجز المقاعد في الطائرة وغير ذلك" (2).

وفي رحلته إلى تمبكتو وصف الرحالة البحث عن أيسر وسيلة النقل، ويقول ذلك يقول: "خلال فترة الانتظار قمت بمحاولات لجمع المعلومات عن الخطوط الجوية التي تتراد أفريقيا الغربية، فاتصلت ببعض معارفي ممن لهم خبرة في هذا المجال فأشاروا على الاتصال بشركة مصر للطيران... وبعد اليأس من الخطوط الجوية بدأت أفكر في البرية فاتصلت أنا والسيد مرتضى الحقيقي بالدكتور شعت عبد الرحيم فاقترح على السفر عن طريق نيامي عاصمة النيجر... وقد حذرني الدكتور يحي أويولي Oyewole من السفر البري لخطورة الطريق..." في المقاطع السابقة صرح الكاتب في وصف استعداداته للرحلات حيث يستفسر عن الأشياء التي تحتاجه قبل البدء في الرحلة.

العناية بذكر وسائل النقل ورفقائه في السفر: يهتم الرحالة بذكر وسائل النقل في جميع رحلاته برأ، وبحراً وجواً، ففي رحلته الأولى ذكر بأنه اعتمد على وسائل النقل مختلفة، وتتمثل في سيارة، وطائرة، ودراجة نارية، ومركب البحر، ومشى أحياناً، وعكف على وصف أحوال السير لهذه الوسائل وهي بين البطء والسريع، يقول في "من إلورن إلى تمبكتو" يصف السيارة: "رافقني ابن عمي حسن (أبو أشرف) وابن أختي عبد السلام إلى محطة أوكو أولووو (Oko Olowo) غرب إلورن حيث أقلت سيارة صغيرة إلى مدينة شاكي. لقد لقيت في تلك الرحلة نصباً حيث قطعنا في خمس ساعات مسافة تقطع عادة في ساعتين ونصف أو ثلاث، لقد السائق السيارة خمس عشرة مرة ليصب الماء في المشعاع الذي أصابه فجأة خلل وكنا وسط غابة موحشة..." (3).

وفي موضع آخر يصف رحلته في بوركينا فاسو (Burkina Faso) داخل السيرة قائلاً: "تحركت السيارة في التاسعة إلا عشر دقائق، وكان يوم تنظيف البيئة، وقد سارت ببطء شديد في وسط البلد تنعرج بين المرتفعات

والمنخفضات... " (4) وعند عودته إلى نيجيريا دفعته الحاجة إلى ركب العبرة على الماء يقول: "فنزل الركاب جميعاً وجاءت عبّارة صغيرة عبرت بنا وبالخافلة... على حال إنهما راكبا بأمواجه المتلاطمة، وأنا راكب النهر الجاري الهادئ بنسيمه العليل، فشتان ما بيننا من فروق، ركبت العبارة ولساني يتلو قول الحق جل وعلا: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (5) ... ٤١"

"وفي رحلته إلى مدينة درهام بالولايات المتحدة الأمريكية يصف الأبعاد الخارجية للطائرة، ويصف بعض مكوناتها الداخلية وعدد الركاب وارتفاعها وحالتها في جو السماء: " وفي تمام الساعة 2010، أقلعت بنا الطائرة رقم 8-787 على خطوط يونيتيد الأمريكية (United America) وهي طائرة حديثة تستعرض شاشاتها الصغيرة حوالي 13 لغة ليس من بينها العربية أو أية لغة نيجيرية تحمل الطائرة 219 راكباً، ويبلغ عدد جناحها 197 قدماً، وتعمل بمكنتين من طراز توربوفن (Turbofan) تزن الواحدة منهما 69800 باوند، وتقع 560 ميلاً في الساعة، وهي شديدة الاهتزاز والزعزعة حين تصارع التيار، ويبلغ ارتفاعها في أقصاه 41,000 قدماً.... وبعض مضي 13 ساعة من دون توقف هبطت في مطار هيو سطن جورج بوش... " (6)

في المقاطع السابقة، يصف الرحالة وسائل النقل التي استخدمها في رحلاته، وقد حدّد أبعادها الخارجية كقلة الحجم، كلاسيكي أو حديث، ومشاعر ركابها؛ من ضيق، وفرح، قلق واهتزاز، كما يصف سيرها بين البطء والسرعة وغيرها من حركاتها ومشاعر الشخصيات التي تم تصويرها في الرحلات المدروسة. ومما تميز أسلوب كتابته، ذكر أسماء رفقاءه في الرحلة سواء أكانوا يسافرون إلى مكان واحد لغرض نفسه أو التقوا في محطات السيارة أو المطار أو البلاد التي رحل إليها، ومن ذلك يقول في رحلته إلى ولاية أودار بالجزائر: "غادرت أنا والدكتور عيسى ألي، والدكتور خليل عثمان بودوفو مدينة إلورن بعد صلاة

الجمعة يوم 29 من سبتمبر...⁽⁷⁾ في السياق السابق ذكر رفيقه في السفر من مدينة إلورن إلى الجزائر. وفي مكان آخر من الرحلة ذكر أسماء الذين شاركوه في المؤتمر من النيجيريين قائلاً: "وصلنا الفندق حوالي 12:30 نهاراً وأدركنا أعضاء المؤتمر القادمين من دول أخرى ومن بينهم الأستاذ ثاني عمر، والدكتور كمال بابكر من جامعة عثمان بن فودي بصكتو نيجيريا، خرجنا نحن الخمسة وتحولنا جولة قصيرة في الشوارع المجاورة بحثاً عن مكان تناول فيه الفطور...⁽⁸⁾ هذا يدل على أن الرحالة يهتم بمعرفة أسماء الذين يسافرونه معه سواء من الذين بدأوا الرحلة معه من نيجيريا أو الذين لقيهم في محطة السيارة في المطار أو داخل الطائرة أو الذين استقبلونه بعد الوصول إلى البلد المقصود، أو الذين التقى معهم من دول مختلفة، فقد ذكر أسماءهم جميعاً كما ذكر بعد أبعادهم الفيسولوجية والسوسولوجية والسيولوجية.

الاهتمام بتحديد المشكلات والخواطر أثناء الرحلة: وصف الخواطر الجارية والمشكلات أثناء الطريق، مما يمكن أن يكون عادياً في حياة جماعة من الناس ولم يكن الأستاذ جمياً يعمد في تدوين خواطره أثناء الرحلة، على مجرد السرد السطحي، بل يغوص إلى الأعماق والأغوار، حيث تمتزج المشاهد بوجوده فيصوغها بلواعجه واختلاجاته، وقد وصف الرحالة أنواعاً كثيراً من المشكلات التي لقي في رحلاته، وتتمثل تلك الخواطر في: تعطيل وسيلة النقل، وسرقة المتاع، ومنع المرور، ومنع دخول البلاد، ومضايقات التفتيش له والأمتعة ومصادرتها من قبل رجال الأمن والجوازات، وإهمال الطريق، والشعور بالغرابة، وطلب الرشوة، وعدم الاحترام به، وغيرها من العوائق التي يصعب معها سير الرحلة، ومتابعة قطع المراحل.

ففي رحلته إلى تمبكتو يصف شعوره الأليمة في الطريق إلى مدينة شكبي: "لقد لقيتُ في تلك الرحلة نصباً حيث قطعنا في خمس ساعات مسافة تقطع عادة في ساعتين ونصف أو ثلاث، لقد أوقف السائق السيارة خمس عشرة

مرة ليصب الماء في المشعاع الذي أصابه فجأة خلل وكنا وسط غابة موحشة...⁽⁹⁾ ويقول في موضع آخر: "لم يدم السرور طويلاً، إذ في تمام الساعة الثامنة بعد أن غادرنا بلداً يسمى بزني تفرع هواء إطار أمامي ففكه السائق وذهب به إلى بلد قريب منا ولم يتمكن من الرجوع تلك الليلة فاضطررنا إلى المبيت فر شرفة مكتب الشرطة من دون سرير أو حصير، وكان المطر منهمراً والبرد قارساً."⁽¹⁰⁾ وحين يسرد الرحالة نزوله إلى مدينة باماكو يحكي خبرته في الفندق وبعض العادات القبيحة الجارية فيها، فقد تم غصب أمواله بأسلوب غريب قائلاً: "ولما دخلت استهجننت ما رأي فيه من شرب الخمر وخلط الرجال بالنساء، لكن وعناء السفر والتعب أرغماني على الرضي، قامت فتاة فاتحة اللون تجيد الإنجليزية والفرنسية بدور المترجم بيني وبين الخادم في تلك الليلة، وقد طالبني بدفع 8000 سيفاً يسجل 7,000 منها في الفاتورة، والألف الباقي يكون له، لأنه كلن مفلساً تلك الليلة، قبلتُ الشرط قسراً لأجل الظروف التي كنت فيها، والعجيب أنه سجل 6000 فقط في الفاتورة سرقة واضحة وضوح الشمس"⁽¹¹⁾

وفي رحلته إلى ولاية أدوار بالجزائر يصف الرحالة بعض خبراته عند نزوله إلى فندق بالمريوم (Palmarium) بالجزائر حيث غشه صيرافي وهو متجاهل يقول: وما أن خرجنا من صالة الاستقبال إلى موقف السيارات حتى هرول صيرافي وعرض علينا صرف مائة دولار أميركي بتسعة آلاف دينار جزائري ووصفه بأحسن عرض في السوق. لقد أغرانا هذا العرض الذي سانده لسان معسول فطلب كل واحد منا صرف 100 دولار، ولما وصلنا الفندق أبدت الرغوة عن الصريح وعلمنا أن الرجل قد احتال "علينا فوقعنا في فريسته حيث خسر كل واحد منا مبلغ 1000 دينار"⁽¹²⁾.

أما في رحلته إلى الأردن، فيصور أكبر المشكلة التي يعاني منها، حيث سافر إلى هناك بدون تأشيرة فمنعه الجوازات والأمن من دخول المدينة: "وقد قام موظفو الجوازات بما يستطيعون وبدأوا يجرون الاتصالات بالمسؤولين الكبار داخل

المطار، ومع الأسف الشديد كانت النتيجة هو رفض السيد نائب الجوازات، المشرف على الفترة، إعطاءنا التصريح، وشرعوا في إجراءات ترحيلنا إلى نيجيريا على متن الخطوط الجوية المصرية القادمة، بعد ساعات قليلة. وفي هذه اللحظة استسلمنا للقدر، وبدأنا نفكر في استرداد متاعنا ونزولنا في مطار مرتضى مُجَّد بليغوس، مع أن عيوننا لم تذق النوم قط منذ أن غادرناه حوالي عشرين ساعة ماضية. قادنا الضابط الذي سلم له جوازاتنا إلى مكتب الترحيل، حيث حجرة كبيرة يحجز فيها الرّحلين ومن حُرِّم الدخول ريثما يتم تجهيز أوراقه استعداداً لترحيله، وفيها حوالي ثمانية شباب من مختلف الجنسيات، في هذا المكان بدأ الله يرينا علامات استجابة لدعائنا. سلمنا الضابط لضابطين آخرين... ويبدو أنهما درسا الظروف المحيطة بقدمونا وعدم حصولنا على التأشيرة فقررا أن يجمعنا بين القانون والمروءة، وألسبنا الدستور رداء الإنسانية... " (13)

في السياقات السابقة يلاحظ أن الرحالة أشدّ الاهتمام بتصوير معاناته أثناء السفر، فقد قام بتحديد المشكلات بصور مختلفة، وكانت تحدياته أثناء السفر تختلف باختلاف وسائل السفر، والبلدان المقصود ونوعية الشخصيات الذين يمر بهم الرحالة، ويظهر عواطفه الأليمة تجاه هذه التحديات، فجميع القضايا التي يناقشها يؤثر سلباً على عرضه وإنسانيته، وهو لا يرضى بذلك.

العناية بوصف الأبعاد الجغرافية للبلاد

اهتمام الرحالة بتدوين الجوانب الجغرافية في الرحلة ليس حديثاً، فمنذ أقدم العصور تزايد الاهتمام بالمعرفة الجغرافية، فظهرت بعض النظريات الفكرية عن شكل الأرض وعن قبة السماء، ومما ساعد على بلورة تلك النظريات، التوسع في الرحلات، فقد كان الرحالة العرب يدونون الأبعاد الجغرافية في رحلاتهم إلى أماكن شتى. والرحالة جمبا يعرف أن العلاقة بين الرحلة والجغرافيا علاقة وطيدة، فشغل باله وصف مواقع جغرافي للبلاد التي زارها، حتى أخذ الجوانب الجغرافية مساحة كبيرة في رحلاته. وهو يعد أول الأديب النيجيري أشد اهتماماً بالقضايا

الجغرافية في رحلاته سواء أكانت رحلة برية أو جوية، وقلما يمر ببلد من البلدات التي زارها أو قرية من القرى التي يمر بها إلا ويقف عند موقعها الجغرافي، ويمكن القول أن رحلات الأستاذ جمبا اقتزنت بالجغرافية الوصفية واستكناه معالم البلدان. وفي رحلته: "من إلورن إلى تمبكتو" وصف جغرافية البلاد المتعددة حيث إن مقتضيات السفر تدفعه إلى مرور بثلاث دول أفريقية غربية- مثل بنين، وبوركينا فاسو، ومالي، فقد حدد جميع مواقعها الجغرافية يقول عن بنين: "بنين دولة صغيرة تبلغ مساحتها 112, 600 كيلومترا مربعا، وتحدها غرباً دولة توغو (Togo)، وشمالاً غربياً بوركينا فاسو، وشمالاً شرقياً جمهورية النيجر، وشرقاً نيجيريا. وعدد سكانها سبعة ملايين ونيّف نسمة. فيها قبائل متعددة أهمها فونّ ويوربا، وسومبا، وبربا، معظم سكانها وثنون، لكن الإسلام منتشر في شمالها وجنوبها الشرقي. ويعتمد اقتصاد الدولة على التجارة والزراعة، وصيد السمك، وأهم محاصيلها الزراعة القطن، والفل السوداني، والقهوة، والكاكو، والكاساف، واليام، والذرة، ومن حيث الطقس إن معظم أراضيها استوائية حارة، إذ أنها تتكون من الغابات المطرية في نصفها، وسقانا غينيا القليلة المطر في نصفها الباقي، وقطرات المطر في البلاد تتراوح بين 250 و 1500 ملم سنوياً"⁽¹⁴⁾ ومن البلاد التي مر بها الرحالة ووصف جغرافيتها، مدينة شكي بنيجيريا، وفوركينا فاسو، ومالي، والأردن، كامبرج، غير أن الفرصة لا تسمح لنا لنعرض الصفات الجغرافية التي يقدمها الرحالة، وإنما يكتفي الباحث بنموذج واحد لتأييد كلامه.

الاهتمام بالأبعاد التاريخية في الرحلات

لا غرو في أن الرحلة والتاريخ تُوأمان لا غنى لأحدهما عن الآخر- دخل الرحلة- أثناء انتشارهما في جسد الرحلة.⁽¹⁵⁾ وعلى هذا الأساس، يحاول الرحالة ممارسة تقديم المكان أثناء تحركه على الخريطة جغرافياً، كما يقدم المكان ذاته، وفي وقت عينه، أثناء تحركه في الوجدان تاريخياً. يهتم الرحالة بتدوين القضايا التاريخية للبلاد والأماكن التي يمر بها، فيستوحي المدونة التاريخية أعلاماً وأزمنة، وتواريخ

أمم، وجامعات، ومساجد، وأفراد ومظاهر مختلفة. ففي رحلته "نيل المرام بزيارة مدينة درهام" يقدم الرحالة تاريخ جامعة دوک بمدينة درهام في الولايات المتحدة الأمريكية يقول: "بدأ ما يعرف اليوم بجامعة دوک بداية متواضعة ترجع إلى عام 1838م حين استأجرت أسرة ميثودست وكواكر في قرية رَنْدُولف كَوْنْتِي السيد برنتلي يورك مدرساً في مدرستهم الخصوصية. وقد مرت المدرسة بتطورات مختلفة حتى عام 1859م حين غير اسمها إلى "الكلية الثالوثية. وفي عام 1887م حدث تحول كبير في تاريخ الكلية حين تولى الشاب جون إف كروويل رئاستها فعمل على مراجعة منهجها، وأسس أول مكتبة للبحوث وأقنع أمناء الكلية بنقلها من القرية إلى المدينة لتسهيل الحصول على عدد من الطلبة والدعم المادي. وفي عام 1892 افتتحت الكلية في مدينة درهام بدعم مادي من السيد واشنطن دوک وجوليا إس. كَر. وفي عام 1924م أوصى رئيس الكلية وليام فو (الذي تولى الرئاسة بين 1910م- 1940م) السيد جيمس بي . دوک.... بدأت الجامعة عام 1926م بكلية الديانة والدراسات العليا، وتلتها كلية الطب ومستشفى الجامعة عام 1930م، فكلية التمريض 1931م، فكلية الجراحة 1938م، وهو العام نفسه الذي أصبحت الجامعة عضو رقم 34 في جمعية الجامعات الأمريكية"⁽¹⁶⁾.

وهكذا يواصل الرحالة بوصف مساحة الجامعة وعدد الموظفين والطلاب وميزانية الجامعة. تشتمل السياق السابق البعد التاريخ عن الجامعة حيث قام الرحالة بتحديد تأسيس الجامعة وكل التطورات التي طرأت عليها من خلال مائة عام، ومن السمات التاريخية في النص هو ذكر تواريخ للأحداث مما يدل على أنه مؤرخ لأنه لا ينفصل بين القضايا التاريخية والرحلة. وفي موضع آخر يقدم الرحالة الأبعاد التاريخية لكنيسة الجامعة. فقد عكف الرحالة على هذا الجانب في جميع رحلاته، كتاريخ بلاد ثوات في الجزائر، وتاريخ كامبرج، وتاريخ المملكة الأردنية الهاشمية.

تحديد الجوانب الاجتماعية للبلدان

وظف الرحالة الجوانب الاجتماعية للبلاد التي زارها بشكل يلفت الانتباه، فقد وصف الرحالة الأبعاد الاجتماعية للدول التي زارها، ومن الأبعاد الاجتماعية التي وصفها وخاصة لدى الشخصيات، العادات، والتقاليد، والملابس، والمواكب، والأطعمة، والأشربة، والنشاطات، والظروف المؤثرة في حياتهم، وأديانهم، وهواياتهم. فالرحالة يوظف كثيراً من القضايا الاجتماعية للدول التي زارها، ففي رحلته إلى الجزائر ذكر بعض الجوانب الاجتماعية التي تتميز بها الجزائريين قائلاً: "ومن شيمهم الجود والكرم، فكل من تلقاه يود لو تزوره في منزله ليضيفك.... ومما لاحظت فيهم أنهم حريصون على تقديم الهدايا لمن يزورهم، فقد أهدى إلينا بعض أساتذة الجامعة والشيخو مجلدات من تأليفهم..."⁽¹⁷⁾ وفي رحلته إلى كامبرج حدد الرحالة بعض الجوانب الاجتماعية في الأمم المتحدة قائلاً: "إن حكومة المملكة حكومة عامل مخلص، مراعية لمصلحة الشعب، والشعب بدوره شعب عامل متعاون مع الحكومة، وواثق بها، بدفع الجانبين إيماناً قوياً بسيادة القانون، والعدالة الاجتماعية، وفاعلية النظام، وشفافية الإدارة، والحب المفرط للوطن، واحترام الرأي الآخر المختلف"⁽¹⁸⁾ ولم يقف الرحالة عند هذه الصفات الحميدة، وإنما يواصل بذكر بعض الجوانب السلبية التي المؤثرة في حياتهم قائلاً: "ومن مساويهم انتشار اللواط والسحاقية فيهم، فقد جعلوا ممارسة جزء من حياتهم الطبيعية، وحكومتهم تشجع ذلك بكل تحمس، وهو عندهم جزء من الحرية المكفولة للشعب."⁽¹⁹⁾ ثم يقول: "فإذا رأيت مثلاً رجلين يمشيان في الشارع ويدهما متشابكتان فاعلم أنهما "زوجان" لو طيان والذي كفته في الأعلى هو البعل، والذي كفته السفلى هو الزوج، ومن المظاهر العادية المألوفة عندهم كذلك ظاهرة "القبلة" العلنية، إنها عندهم أهم من الطعام والشراب، وتعاطي من دون التفريق في العمر...."⁽²⁰⁾ فقد قام الكاتب بتصوير الأبعاد الاجتماعية

في هذه الدولة حيث ذكر خصائص حياتهم الاجتماعية من الجانب الإيجابي والسليبي معا.

وفي رحلته "نيل المرام بزيارة مدينة درهام،" يقول: "حقا لا رأيت الإسلام ولم أرى المسلمين، أولا رأيت الأميركيان أحرض الناس على الوقت" وأوفاهم بالوعد، فهم أكثر الناس تمسكاً بما نسميه عندنا بـ "التوقيت الإسلامي" فلو كانوا مؤمنين لطبقوا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ خير تطبيق، ومن شيمهم كذلك التأدب مع الناس؛ فإذا عطش أحد بجوارهم شمتوه، أو تعثرت قدمه تأسفوا له ومما لاحظت فيهم كذلك الصبر والتأني، وعدم الاستعجال في معالجة الأمور، فإذا ازدحم الشارع بالسيارات فلا يحدث لذلك هرج ومرج، بل الصبر والتأني تجرى الأمور كما ينبغي من دون أن يتدخل شرطة المرور... وما رأيت أمة أرافق بالحيوان من الأميركيان، وحتى السناجيب فإنها تشعر بهذا الرفق والأمان فتتجول آمنة مطمئنة من دون أن يجراً أحد على التعدي عليها، بخلاف ما نجد في بلادنا حيث لا يأمن الإنسان - بله الحيوان - من الإنسان... وأغلى هدية عند الأميركيان الابتسامه، إنهم جميعاً كرماء بهذه الهدية، يهدونها في أوقات العسر واليسر، وكثيرا ما يصاحب الابتسامه هزة إيجابية للرأس، وقد قال الرسول الأمين: "تبسمكن في وجه أخيك صدقة..." (21)

وهكذا وصف الرحالة كثيراً من حياتهم الاجتماعية التي تتميز بها الأميركيان. ويقول عن أهل الأردن: "ويمكن للواقف على الشارع أو أمام الجنيئة أن يرى الجالسين على المدرجات لأنها في مكان رابٍ، ويسمع الموسيقي الشعبية الصاخبة التي يرقص لها الناس... أشبعنا عيوننا خلال جولتنا في طول الجنيئة وعرضها، والملاحظ أننا لم نرى الاختلاط الجنسي بين الشباب، حتى في الزوايا الضيقة المظلمة في الجنيئة..." (22)

وفي رحلته إلى تمبكتو يصف الرحالة كثيراً من الحياة الاجتماعية المشهورة في البلاد التي يمر بها في كل من بنين، بوركينافاسو، ومالي. يقول في أهل بربا

(Baruba) بولاية كوارا على حدود نيجيريا وبنين: " حياة سكانها بدوية بدائية، يعيشون على الزراعة، والحكومة لا توفر لهم الماء والكهرباء، والطرق والرعاية الصحية، وكل شيء فيها غالي إلا الهواء والتراب..."⁽²³⁾ ولما وصل دولة بنين وصف الرحالة بعض الأحوال الاجتماعية قائلاً: " لا يكاد يجد فرقاً كبيراً بين جمارك والجوازات والهجرة في كل من نيجيريا وبنين إلا أن البنين أكثر نظاماً في معاملاتهم وحتى في أخذ الرشوة الذي هو ظاهرة عادية مألوفة في طول بلاد إفريقيا الغربية وعرضها"⁽²⁴⁾ ولما وصل بوركينا فاسو يقول عنهم: "رأيت الناس من ألوان وأجناس مختلفة ينشغلون بشؤونهم، يتحركون مهولين، لا يبالي أحدهم بالآخر، ورأيت الشبان يمارسون الأعمال الشاقة الرخيصة كدفع العربات، ورفع الأثقال، فالكدح والإرهاق شبح يطارد الشاب الإفريقي في كل مكان، ولاحظت كذلك أن السائقين ينضبون بقوانين المرور على خلاف ما نشاهده في المدن النيجيرية الكبرى، كما لاحظت فعالية المرافق العامة وصيانتها"⁽²⁵⁾

يتضح من السياقات السابقة أن الرحالة لا يمر بمكان من الأماكن التي زارها إلا ويشاهد الأشياء بعين فاحص ويسجل تلك المشاهدات بالأمانة من جوانبها المختلفة، يكاد لا يمر بشيء يعجبه من الجوانب الاجتماعية للبلدان التي يمر بها إلا ويدونها مباشرة، بل يحدد تحديداً دقيقاً في وصفه، أحياناً يكون وصفه بالإيجاز، ويكون تفصيلاً حيناً آخر.

تحديد المكان في الرحلات

يقصد بالمكان في العمل الإبداعي: "المجال الذي تسير فيه الأحداث من تحولات على مستوى الشخصيات من أفعال وأقوال"⁽²⁶⁾ وهو عنصر مهم في كتابة الرحلات لا غنى عنه، لأن كل الأحداث التي يقدمها الرحالة في رحلاته وقعت في مكان من الأماكن لا مفر منه. ويقصد الباحث بالمكان في رحلات الأستاذ جمياً، مجموعة الأمكنة التي تقوم عليها حركة الرحلة المتمثلة في سيورة الحكي سواءً تلك الأمكنة التي يصورها الرحالة بشكل مباشر أم تلك التي تدرك

بالضرورة وبطريقة ضمنية مع كل حركة في الرحلة. وقد عمل الرحالة على تحديد معظم الأماكن التي زارها أو فعل شيء فيها. والأماكن التي دَوَّنها الرحالة تنقسم إلى قسمين رئيسيين وهما: الأماكن المغلقة، والأماكن المفتوحة. والأماكن المغلقة في الرحلات تتضمن، البيت، والغرفة، والفندق، والسيارة، والطائرة، والمسجد، والمكتبة، والكنيسة، والمتاحف، والإدارة، والمستشفى، وغيرها من الأماكن التي حُدِّدَتْ مساحته ومكوناته، فيبقى الشخصيات محاصرين، أو يشعرون بالقلق لمدة، أو يشعرون بأنهم في دائرة مغلقة، وقد يكون مصدراً للخوف.

ففي رحلته إلى "من إلورن إلى تمبكتو" يصف الرحالة حالته المحزنة في مكان مغلق حيث يقول: "بعد أن غادرنا بلداً يسمى بَرْنِي تفرع هواء إطار أمامي ففكك السائق وذهب به إلى بلد قريب منا ولم يتمكن من الرجوع تلك الليلة فاضطررنا إلى المبيت فر شرفة مكتب الشرطة من دون سرير أو حصير، وكان المطر منهمراً والبرد قارساً." (27) وفي رحلته إلى الأردن أيضاً وقع الرحالة في مكان مغلق حيث أصبح الحزن والقلق طعامه وشرابه يقول: "وفي هذه اللحظة استسلمنا للقدر، وبدأنا نفكر في استرداد متاعنا ونزولنا في مطار مرتضى مُجَّد بليغوس، مع أن عيوننا لم تذق النوم قط منذ أن غادرناه حوالي عشرين ساعة ماضية. قادنا الضابط الذي سلم له جوازاتنا إلى مكتب الترحيل، حيث حجرة كبيرة يحجز فيها الرّحّلين ومن حُرِّمَ الدخول ريثما يتم تجهيز أوراقه استعداداً لترحيله..." (28) في هذا المقطع يصور الرحالة بعض المعاناة التي صادفها من قبل الجوازات، كمنعه من الدخول، وسوء المعاملات معه، فبالتالي يشعر الرحلة بأنه في حالة التضييق، لفقد حرّيته، وهذا المكان يشير إلى القلق والهَم.

أما الأماكن المفتوحة في الرحلات فيتكون من المدن، والقرية، والصحراء، والطرق، والشوارع، والأحياء، والجامعات، والغابات والأسواق فكل هذه الأماكن هي الأماكن المفتوحة من حيث المساحة والحركات، فيمكن للشخصيات حرية الانتقال من مكان إلى آخرى، ويستطيع أن يشاهد الأشياء والأشخاص

بالحرية بخلاف النوع الأول الذي تكون الشخصيات فيها مقيداً من جهة، وقد صور الرحالة كثيراً من الأماكن المفتوحة في جميع رحلاته، وخير مثال رحلته إلى كامبرج حيث يمشي في الشوارع بالحرية ويشاهد الأشياء كما يشاء فوقف في الميدان قائلاً: "جلست في الميدان لمدة ساعتين من دون ملل أو تعب، بل كنت أراقب أحوال الناس وتصرفاتهم في هذا الميدان الواسع الذي تحيط به المباني الشاهقة من كل جهة، يمر أمامه شارع واسع مزدحم بالمشاة والسيارات الخصوصية والحافلات العمومية الحمراء ذوات الطابق العلوي..."⁽²⁹⁾ يظهر في النص السابق أن الرحالة في مكان مفتوح حيث يمكن له مشاهدة الأشياء وتصرفات الناس بحرية.

الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة

إذا كان القرآن الكريم مصدراً للعلم والثقافة، ونبعاً فيّاضاً ينهل من الأدباء؛ لعلو لغته وسبكه، فإنه يشكّل أساساً بين المصادر التي اعتمد عليها الرحالة في سرد الأحداث في رحلاته حيث إنه اغترف من آياته وأسلوبه البليغ لغةً رصينةً وتصويراً فائقاً، فقد استشهد كثيراً بالآيات القرآنية ليقوى كلامه، لكي يعرف المتلقي موقفه في الالتزام بالأدب الإسلامي. وكانت الاستدلال بالآيات القرآنية في الرحلات جاءت بأسلوب التناص أي تداخل نصوص قرآنية مع نص الرحلات بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويقدمها في رحلاته. وفي رحلته إلى تمبكتو رأى الرحالة رجلاً في مدينة باماكو فتعجب بحلقه فتلى يقول: "رأيت رجلاً فتوهمت أنه من قبيلة إغالا بولاية كوغبي... فتلوت عليه آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعُلَمِينَ ٢٢﴾ (سورة الروم)، وفي رحلته إلى الأردن ورد الرحالة عدداً كبيراً من الآيات القرآنية، والسبب في ذلك يرجع إلى زيارته للأماكن التاريخية الكثيرة منها أهل الكهف، ومقبرة يوشع بن نون، ومقبرة نبي الله أيوب، ومقبرة نبي الله شعيب. فقد ذكر

بعض الآيات القرآنية التي تخلق بأهل الكهف وهؤلاء الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) يقول في أهل الكهف: "ورد قصة أصحاب الكهف في القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١﴾ (سورة الكهف)، وأوقفنا السيارة على حافة الشارع ودخلنا عبر جنيئة صغيرة... " (30)

ومن الأحاديث النبوية التي ذكر الرحالة قوله (صلى الله عليه وسلم): "السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله" (31) وذلك لأن الرحالة يعاني من الصعوبات لكونه في الصحراء القاحلة في نفحات الحر، وعلى طريق غير مرصوص فذكر قول رسول السابق.

الشواهد بالأشعار العربية في الرحلات

الشعر عنصر مهم من عناصر الأدب بشكل عام، ويعرف الأستاذ قيمة هذا الجانب الأدبي فيزيين رحلاته بالأشعار العربية، فنجد في كل رحلاته يضم الأشعار حسب الموقع والمحله، وكان الشعر الذي يقوى أسلوب الرحالة ينقسم إلى قسمين:

الأول: الشعر الذي يقوله الرحالة بنفسه: تدفعه الحاجة أحيانا أن يقول الشعر لوصف حالته وشعوره عن موقف من مواقف الرحلة، أو ليوضح بعض الأحداث التي تجرى بينه وبين الشخصيات، على سبيل المثال وجد نفسه مضطراً في رحلته إلى تمبكتو فنظم بقوله:

أما لي أراك في ارتحالي بعيدةً ألا يا مناي هل أرى لك طاويا
أليس غريباً أن بيتُ بشارعٍ وكان سرير عند أهلي خاليا
إلهي وربي كن لعبدك حامياً وخفف فيني لا أقلل ما بيا (32)

ويقول في موضع آخر حين يشعر بالغرابة والوحشة:

غريب بأرض همّه متزايد مثبت عزم كان للخير سائرا
 فيارب فرّج كربَ عبدٍ وكن له على وعشاء السير قد صار حائرا.⁽³³⁾
 وعند مغادرة تمبكتو يودع الرحالة بقوله:

لتمبكتو ذكرى في القلوب جميلة بها نلتُ مرماي الذي كان ظاهراً
 مدينة أشرف إليك تحيتي ** تفوح شذاها كالبخور تطائرا
 فإنك رمز المجد مصدر عزنا ** عليك سلام لا يكون بائرا

إلى قوله:

ولما قضيت في البلاد مآربي ** شددتُ رحيلي ثم قمت مغادرا
 فقلت: وداعا يا ديار أعزة ** إذا شاء ربي سوف أرجع زائرا
 وبعد وداعي ذرقتُ عبراتها ** تمدّ يديها مثل من بات خاسرا
 أيا زائراً قد جاء من أرض نيجر ** عليك سلام الله مادمت سائرا
 متى ما تعود للفلاة سلامة ** على طير ميمون إذا كنت طائرا⁽³⁴⁾

وفي رحلته إلى لندن وكامبرج يصور الرحالة الأحداث والمراح التي تجرى
 بينه وبين صديقه نافع، فقط طلب الرحالة منه حلق رأسه، فتعجب الحلاق عن
 الشيب الذي غلب رأس الرحالة فدار بينهما الحوار، فنظم الرحالة قوله:

ونافع حلاق الرووس يلومني ** ويضحك أن قد صار رأسي أشيبا
 فقلتُ له دع عنك لومي فإنني ** قضيتُ من الأيام دهرًا مشببًا
 فلستُ أبالي بالمشيب قدومه ** ولستُ أهاب البيض جاء مرحبًا
 ولستُ أضيع الوقت والوقت فرصة ** لكيما يصبر الرأس سوداً مخضبًا
 أيعقل أن المرء يشكو من البلاء ** وقد كان يدعو أن يعيش مشيبًا
 أحلاق لندن إن شيب رحمة ** ونور الإلهي لاح يطرد غيبها⁽³⁵⁾

في رحلته إلى ولاية أدوار بالجزائر نظم الرحالة قصيدة لتحية أهل الجزائر
 وعلمائها البارزين، ويقول في مطلع القصيدة:

يا زائرا أرض التوت تحيتي ** لشيوخها وشبابها تترقئ

بلد الرجال جميعهم ركبوا العلا ** بعزيمة وكرامة وتفيلقوا
وتبحروا في ذي المعارف كلها ** وتحدثوا وتفسروا وتمنطوا
سطروا العلوم بنظمهم وبنثرهم ** نفعوا الأنام بعلمهم وتحققوا
قطعوا المفاوز والبحار أتوا لنا ** منحوا العلوم لقومنا وتصدقوا
مخطوطهم مطبوعهم في أرضنا ** خيرُ المعارف عينها المتزرق
أرض التوات علوقة بقلوبنا ** لا سيما أدوارها المتألق
قوم تفوح شذي الكرامة فيهم ** زرعوا المحبة في الدنا فتألقوا
قوم إذا نزل الضيوف عليهم ** باتوا الخماص وضيئفهم يتغنى
سبحان من منح التوات شيوخها ** أرض التوات بذكرهم تتعلمق
عبد الكريم إمامنا وزعيمنا ** شيخ المغيلة فضله لا يسبق⁽³⁶⁾

إلى آخر القصيدة

يصرح الرحالة بما يجول من خواطره، فتُكشِّفُ القصيدة بشكلٍ مباشرٍ
عن مشاعر الرحالة حول دولة الجزائر وسماتها المختلفة وبعض الشخصيات البارزة
فيها.

الثاني: الشعر الذي يعرضه الرحالة من الشعر العربي والشعر العربي
للنيجيريين: ومن أسلوب الرحالة أنه يتناص مع الشعر العربي والشعر العربي
النيجيري لتوضيح ظاهرة من المظاهر التي يكتب عنها، وعلى سبيل المثال، إذا
وجد نفسه في وهن أو يشعر بالغرابة أو غير ذلك العواطف الأليمة يقارن تلك
الحالة أو العاطفة بأحوال الشعراء العرب من الذين وصفوا شعورهم في حالة
الفرح أو الحزن أو في البادية أو في الصحراء.

وقد ورد شعر كل النابغة الذبياني، وامرؤ القيس، والأعشى، والإمام
علي، وابن الرشيق القيرواني، وابن حمديس، والصقلي، والمرقس، وابن خفاجة
الأندلسي وغيرهم لندكر قليلاً، ومثال ذلك قوله في رحلته إلى الأردن حين منع
الرحالة من الدخول فوقف مع رفيقه في المطار: "كانت الساعات الست عسيرة،

توترت فيها الأعصاب، وفترت الآمال بالتدريج، وزاد الطين بلة البرد الشديد الذي ارتجف منه الأمعاء، واصطكت الأسنان، وهجر النوم العيون... انتظرنا الصبح فأبى أن يلوح، فقدنا حق التقدير قول الشاعر:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ** علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه ** وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ** بصبح وما الأصباح منك بأجمل⁽³⁷⁾
حين يمشى في الصحراء في تمبكتو، يعاني الرحالة شدة الحرارة ومشى على طريق غير مرصوص ورد الرحالة قول الأعشى حين يصف الصحراء ليشبه صحراء تمبكتو بصحراء العصر الجاهلي أو أن أيام بني أمية أعيد:

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة * للجن بالليل في حافاتها زجل
لا يتمنى لها في الغيظ يركبها ** إلا الذين لهم فيما أتوا مهل
قطعتها بطليح حسرة سُرْح في * مرفقيها إذا استعرضتها قتل⁽³⁸⁾

ومن الشعراء النيجيريين الذين ورد الرحالة أشعارهم: الشيخ جنيد وزير الصكتو، والقاضي عمر، وعيسى ألي أبي بكر، وخليل عثمان بودوفو. ومثال ذلك قوله حين يشبه حالته بحالة الشيخ جنيد في رحلته إلى الخرطوم يقول: "...فانجابت همومي كما انجابت هموم الشيخ جنيد حين أقلعت به الطائرة تجاه الخرطوم فقال"

فعدنا إليها ثم طرنا وشرقت * وقد بعد عنا أراضي النياجر
إلى أن أنخنا وفازت دي النوى * بخرطوم فانجابت هموم المسافر⁽³⁹⁾

الالتزام بالأدب الإسلامي

ومن الملاحظ في هذه الرحلات ظهور الأدب الإسلامي في أسلوب الرحالة، فقد ظهرت عقيدته في تدوينه، حيث يكتب الرحالة بالأمانة، والصدق، والوضوح، ويذكر الله في بداية الرحالة، والتحميد لسلامة النزول، والتوكل على الله أثناء الرحلة، والرجاء، والصبر التحمل بالمصيبة والمكروهات، وفي خواتم يحمدون

الله تعالى ويصلون على خبر البرية. وأخيراً، تمتاز هذه الرحلات بالأساليب البلاغية، من التشبيه، والمجاز، والأساليب الإنشائية، كالأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والتعجب، والنداء، كما تمتاز الرحلات بالمحسنات المعنوية. غير أن الفرصة لا تسع للباحث لاستخراج هذه الظواهر.

العاطفة في الرحلات المدروسة

مفهوم العاطفة

العاطفة لغة: "من عطف يعطفُ عطفًا، انصرف، ورجل عطف وعطّاف: يحمي المنهزمين. والعاطفة هي الرحم، صفة غالبية، وعطفت عليه: أشفقت" (40) وفي اصطلاح "هي الحالة التي تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلى التعبير عن مشاعره والإعراب عما يحول بخلده" (41) يتضح من خلال أن المقصود بالعاطفة في العمل الإبداعي هي مجموعة من الانفعالات والشعور التي تتجمع حول معنى شيء من الأشياء وهذه الانفعالات قد تكون إيجابية أو سلبية. فيقوم الأديب بتصوير هذه الانفعالات والشعور بطريقة تجذب الأسماع وتأثير في القلوب. والعاطفة عواطفه ميزة من المميزات رحلات الأستاذ جمبا حيث قام بتصوير بطريقة جيدة، وكانت عاطفه صادقة وقوية في نفس الوقت.

والعاطفة التي يصورها الرحالة يتنوع إلى العاطفة الأليمة والعاطفة الشخصية ويمكن الكشف عن طريقة ظهورها الرحلات كما يأتي:

العواطف الأليمة في الرحلات (Painful Emotion)

هي العواطف في نفس الإنسان من الحالة السلبية بحيث يشعر بالألم وهذا النوع من العاطفة يؤثر سلباً على التفكير الإنساني وحياته خلال شعوره بها. ويقول أحمد الشايب "هي التي تثير آلام القراء وتشعرهم بما ينغص حياتهم ويكدر صفوها كالحسد والسخط واليأس والظلم ونحوها" (42) والحديث عن العواطف الأليمة في رحلات الأستاذ جمبا هو الحديث المشاعر والانفعالات التي تؤثر سلباً

عليه وعلى تفكيره أثناء رحلته وتتضمن الحزن، والغضب، والشكوى، والقلق، والظلم، والخوف، والخيبة، واليأس ويمكن تقديم نماذج لهذه الصورة كما يلي:

الخوف

هو شعور قوي بالرهبة تجاه أمر ما يواجهه الإنسان، وقد يكون هذا الشعور واقعياً حقيقياً، وقد يكون عبارة عن خيال. يعد الخوف في بعض رحلاته شعوراً يصيب عقل الشخصية المترتبة لحدوث أمر سلبي لها من خطر معين، ففي رحلته إلى تمبكتو يشعر الرحالة بالخوف على نهر النيجر حيث يذكر يقول:

"فنزل الركاب جميعاً وجاءت عبّارة صغيرة عبرت بنا وبالحافلة النهر، لقد تذكرت وكنت على أهبة الركوب قول ابن رشيق القيرواني:

البحر صعب المذاق مر ** لا رجعتُ حاجتي إليه

أليس ماء ونحن طين ** فما عسى صبرنا عليه (43)

يشير هذا المقطع إلى أن عبد الله يشعر بالخوف على هذا النهر فيظهر الخوف خوفاً شديداً في نفسه، فيشكّ قلبه ألا يغرق العبارة.

الحزن

الحزن عكس الفرح، وهو ألم نفسي يوصف بالشعور باليأس والعجز، ويعد الحزن من الانفعالات غير السارة، التي يعاني منها نسبة من الناس، خصوصاً بعد تعرضهم لظروف من الإحباط، أو تغير نمط حياتهم يصاحب الحزن أحياناً بالبكاء. والرحالة حين يسافر إلى تمبكتو اشتد عليه بعض الأمور فغرق في حزن شديد قائلاً: "لم يدم السرور طويلاً، إذ في تمام الساعة الثامنة بعد أن غادرنا بلداً يسمى بزني تفرغ هواء إطار أمامي ففكته السائق وذهب به إلى بلد قريب منا ولم يتمكن من الرجوع تلك الليلة فاضطررنا في شرفة مكتب الشرطة من دون سرير ولا حصير، وكان المطر منهمراً والبرد قارساً فنظمت هذه الأبيات:

أما لي أراك في ارتحالي بعيدةً ألا يا مناي هل أرى لك طاوياً

أليس غريباً أن بيتٌ بشارعٍ وكان سرير عند أهلي خالياً

إلهي وربّي كن لعبدك حامياً وخفف فيّني لا أقلل ما بيا⁽⁴⁴⁾
 فالرحلة في الأبيات السابق يشعر بالحزن الشديد حيث وجد نفسه
 مضطراً في الطريق ولا ينام طول الليلة، وقد صرح في الأشياء التي فقدتها في المكان
 وفي رحلته إلى الأردن يحزن الرحالة بحالته قائلاً "كانت الساعات الست عسيرة،
 توترت فيها الأعصاب، وفترت الآمال بالتدريج، وزاد الطين بلة البرد الشديد
 الذي ارتجف منه الأمعاء واصطكت الأسنان، وهجر النوم العيون.... انتظرنا
 الصبح فأبى أن يلوح...." ⁽⁴⁵⁾ يلاحظ القارئ في النص أن الرحالة في حالة
 الحزن.

اليأس

اليأس نقيض الرجاء أو قطع الأمل، وهو شعور يصيب الإنسان كدليل
 على فقدان الأمل في تحقيق ما، وقد يؤدي اليأس إلى تحريك مشاعر وعواطف
 أخرى مثل الإحباط. ويعد اليأس عاطفة أليمة يشعر به أحيانا عندما قطع
 رجاءه نحو الحصول على غاية ما، وفي رحلته إلى الأردن يشعر باليأس عند
 الجوازات حين فتشوا أوراقهم وفقدوا التأشيرة، واتفقوا الجوازات على رفضهم إلى
 نيجيريا يقول " وفي هذه اللحظة استسلمنا للقدر، وبدأنا نفكر في استرداد متاعنا
 ونزلنا في مطار مرتضى مُجد بليغوس، مع أن عيوننا لم تذق النوم قط منذ أن
 غادرنا حوالي عشرين ساعة ماضية"⁽⁴⁶⁾ كان الرحالة ييأس من دخول الأردن لعدم
 سفر بالتأشيرة وقد فكر نحو عودة إلى نيجيريا بدون الحصول على الغاية من
 الرحلة.

خلاصة القول، يندرج العواطف الأليمة لدى الكاتب في كل الخواطر
 والمشكلات التي صادفها الكاتب في رحلاته، وتتمثل بقية العواطف الأليمة في
 تعطيل وسيلة النقل، وسرقة المتاع، ومنع المرور، ومنع دخول البلاد، ومضايقات
 التفتيش له والأمتعة ومصادرتها من قبل رجال الأمن والجوازات، وإهمال الطريق،

والشعور بالغرابة، والمطالبة بتقديم الرشوة، وعدم الاحترام به العواطف الشخصية
(Self-Regarding Emotion)

الحديث عن العواطف الشخصية في رحلات الأستاذ جمبا هو الحديث
عن العواطف في نفس الكاتب وتتضمن الفرح، والمدح، والمحبة، والتشجيع،
والفخر والبذل وغيرها، بل هي الحالة الخارجية التي ترمي إلى الأشياء الإيجابية
حيث يشعر الكاتب بالفرح والبهجة.

الخاتمة

في يتضح في السطور السابقة، أن الرحالة ذوي اهتمام كبير بالرحلات
لأغراض ثقافية، حاول الباحث الكشف عن الخصائص البارزة في رحلات
الأستاذ مشهود محمود جمبا لإفادة القارئ عن اهتمام الرحالة بهذا الجنس الأدبي،
فيتضح فيما سبق أن رحلاته لا تفتقر من العناصر والخصائص التي يتطلبه أدب
الرحلة. ورحلات الأستاذ تتميز بتسجيل المباشر للأحداث والمشاهد، ووصف
الاستعداد للرحيل ومراحله، وذكر وسائل النقل ورفقاء السفر، وتحديد المشكلات
والخاطر أثناء السفر، ووصف القضايا الجغرافية، والتاريخية، والاجتماعية،
والدينية، وسرد المكان والزمان، والاستشهاد بالآيات القرآنية والحديث النبوي،
والتناص بالأشعار العربية، وتصوير الأدب الإسلامي، وظهور عواطف الرحالة.

الحواشي والهوامش

- 1 - www.newnig.com
- 2- مشهود محمود جمبا، نيل المرام بزيارة مدينة درهام، (القاهرة: مؤسسة المختار، ط1، 2015م)، ص 2
- 3- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو: رحلة عبر جنوب الصحراء بحثا عن ماضي إفريقيا (القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 2009م)، ص 25
- 4- المرجع نفسه، ص 27
- 5- المرجع نفسه، ص 67
- 6- مشهود محمود جمبا، نيل المرام بزيارة مدينة درهام، المرجع السابق، ص3
- 7- مشهود محمود جمبا، خلاصة الأخبار في زيارة ولاية أدوار، (مؤسسة المختار، ط1، 2015)، ص11
- 8- المرجع نفسه، ص 12-13
- 9- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو: رحلة عبر جنوب الصحراء بحثا عن ماضي إفريقيا، المرجع السابق، ص 25
- 10- المرجع نفسه، ص 31-
- 11- المرجع نفسه، ص 43
- 12- مشهود محمود جمبا، خلاصة الأخبار في زيارة ولاية أدوار، المرجع السابق، ص 11-1
- 13- مشهود محمود جمبا، الرحلة البهية إلى المملكة الأردنية الهاشمية، (إلورن: مطبعة ألي، ط1، 2020) ص 14-15
- 14- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو، المرجع السابق، ص 30
- 15- عبد الرحيم مورن، أدبية الرحلة، (المغرب: دار البيضاء، ط1، 1996م)، ص13
- 16- مشهود محمود جمبا، نيل المرام بزيارة مدينة درهام المرجع السابق، ص 10
- 17- مشهود محمود جمبا، خلاصة الأخبار في زيارة ولاية أدوار، ص 34
- 18- مشهود محمود جمبا، التفرد برحلة لندن كامبرج، (إلورن: Alabi Press، ط1، 2016)، ص38،
- 19- المرجع نفسه، ص50
- 20- المرجع نفسه، ص 50
- 21- مشهود محمود جمبا، نيل المرام بزيارة مدينة درهام، المرجع نفسه، ص 35-36
- 22- مشهود محمود جمبا، الرحلة البهية إلى المملكة الأردنية الهاشمية، المرجع السابق، ص 20

- 23- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو، المرجع السابق، ص 29
- 24- المرجع نفسه، ص 32
- 25- المرجع نفسه، ص 37
- 26- سيزا قاسم، بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ (القاهرة: مكتبة الأسرة، ط3، 2004م)، ص 103
- 27- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو، المرجع السابق، ص 31-32
- 28- مشهود محمود جمبا، رحلة البهية إلى المملكة الأردنية الهاشمية، المرجع السابق، ص 14
- 29- مشهود محمود جمبا، التفرج برحلة لندن وكامبرج، المرجع السابق، ص 31
- 30- مشهود محمود جمبا، الرحلة البهية إلى المملكة الأردنية الهاشمية، المرجع السابق، ص 24
- 31- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو، المرجع السابق 68
- 32- المرجع نفسه، ص 32
- 33- المرجع نفسه، ص 40
- 34- المرجع نفسه، ص 66
- 35- مشهود محمود جمبا، التفرج برحلة لندن وكامبرج، المرجع السابق، ص 33-34
- 36- مشهود محمود جمبا، خلاصة الأخبار في زيارة ولاية أدوار، المرجع السابق، ص 24
- 37- مشهود محمود جمبا، الرحلة البهية إلى المملكة الأردنية، المرجع السابق، ص 13
- 38- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو، المرجع السابق، ص 68
- 39- المرجع نفسه، ص 5
- 40- ابن منظور، لسان العرب، المجلد 9، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003م) ص 298
- 41- عبد المنعم خفاجي، مدارس النقد الأدبي الحديث، (القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1995)، ص 44
- 42- المرجع نفسه، ص 183
- 43- مشهود محمود جمبا، من إلورن إلى تمبكتو، ص 67
- 44- المرجع نفسه، ص 32
- 45- مشهود محمود جمبا، الرحلية البهية إلى المملكة الأردنية، المرجع السابق، ص 12
- 46- مشهود محمود جمبا، الرحلة البهية إلى المملكة الأردنية الهاشمية، ص 14